**ملخص محاضرات الفكر الإسلامي(السنة الثانية اللغة والدراسات القرآنية)**

**أولا/ تعريف الفكر الإسلامي**:

ذكر الباحثون عدة تعريفات للفكر الإسلامي نكتفي بذكر بعضها تحاشيا للإطالة:

1/ "**كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله إلى اليوم في المعارف الكونية العامّة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني في تفسير تلك المعارف العامّة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدةً وشريعةً وسلوكاً**"(1).

2/ **" المحاولات العقلية والجهود العلمية التي بذلها المسلمون منذ انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه، لفهم الإسلام وعرضه، ومواجهة المشكلات الواقعة في ضوء أصوله ومبادئه**"(2).

3/ " **هو المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام في مصادره الأصلية، القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، إما تفقهاً واستنباطاً لأحكام دينية، وإما توفيقاً بين مبادئ الدين وتعاليمه وبين الأفكار الأجنبية، و إما دفاعاً عن العقائد الصحيحة أو رد العقائد المنحرفة**"(3).

4/ "**و لذا فنحن نعني بالفكر الإسلامي: ما أنتجه وينتجه العقل المسلم من خلال تعامله مع النصوص الإسلامية وفق منهج علمي**"(4).

5/ "**المنهج الذي يفكر به المسلمون أو الذي ينبغي أن يفكروا به**".

يلاحظ على التعريفات السابقة عدة أمور منها :

-1 الفكر الإسلامي هو إعمال العقل لفهم الإسلام في نصوصه ومبادئه (طبيعة الفكر الإسلامي).

-2 الاعتماد على النصوص و المبادئ الإسلامية (المرجعية الحاكمة).

-3 الفكر الإسلامي عملية مستمرة لا تتوقف.

-4 الفكر الإسلامي له عدة ميادين منها العقيدة، الفقه، السلوك أو التصوف، السياسة، التفسير، التاريخ... فكل مجال يتفاعل معه العقل المسلم جاعلا الإسلام مرجعية له، وينتج لنا معرفة فيه فهو فكر إسلامي.

5/ يراد بإطلاق مصطلح الفكر الإسلامي تارة الكيفية التي يدرك بها الإنسان المسلم المفكر حقائق الأمور التي أعمل عقله فيها، ويستعمل هذا الإطلاق عادة حين يكون سياق الحديث إبراز منهج المسلمين في التفكير في مقابل مناهج تفكيرية أخرى، فيكون الفكر عندئذ بمثابة الآلية أو الطريقة أو المنهجية في عملية التفكير؛ ويراد به تارة أخرى ما نتج عن تلك العملية من تصورات وأحكام ورؤى حول القضايا التي أعمل المسلم المفكر عقله فيها.

**ثانيا/ محددات تعريف الفكر الإسلامي**:

إن تعريف الفكر الإسلامي تعريفا جامعا مانعا ينبغي أن يستوعب العناصر التالية:

1/ الجمع بين عمل الفكر كأداة (منهج) وبين ما ينتجه الفكر من ثمرات.

2/ أن ينصب الفكر الإسلامي على الناحية التنظيرية التصورية دون العملية السلوكية.

3/ أن يعرف الفكر الإسلامي بأنه فكر موجه أو بعبارة أنسب ملتزم بتعاليم الإسلام، فلا يتوافر الفكر في ظل الإسلام على الخوض فيما نهى عنه الشارع، ولا يتحرر من الضوابط الشرعية والأخلاقية، ولا يدخل فيما ثبت عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما يدافع عن ذلك ، ويظهر حكمة الشارع فيه، ويلتمس العلل فيما هو قابل للتعليل، ويدعو الناس إلى الإيمان به على أساس البراهين النقلية والعقلية.

4/ خلو التعريف من منع البحث في المعارف الكونية والعلوم التي تقوم عليها حياة الإنسان على الاكتشاف والابتكار وإعمال العقل، وهذا ما حققه الفكر الإسلامي المتبع بالرؤية الإسلامية الأصيلة في قرون التحضر فأبدع أيما إبداع، حيث ساهم بقسط وافر في بناء النظم وإقامة الحضارة، وتطوير العلوم ومناهج البحث في مختلف المجالات.

5/ خلو التعريف من إضفاء العصمة على هذا الفكر، لأن الفكر اجتهاد بشري، ولا يخلو الاجتهاد من إحدى حالتين: إصابة الحق أو الخطأ؛ وقد بين الرسول الكريم في سنته المطهرة أن للمجتهد المصيب أجرين وللمخطئ أجر واحد.

6/ خلو التعريف من إدراج الوحي المعصوم (الكتاب والسنة) ضمن إطلاقات الفكر الإسلامي، فالوحي المبارك مصدر لهذا الفكر وموجه له، لكنه ليس جزءا منه، سواء باعتباره منهجا أو باعتباره ثمرة لهذا المنهج كما سبق بيانه.

**ثالثا/ مصادر الفكر الإسلامي**:

1/ الوحي: ينطلق الفكر الإسلامي من نصوص الوحي كتابا وسنة ومن مقاصدهما وسائر الأحكام والمبادئ والقواعد التي انتزعت منهما في سبيل بناء الرؤية الإسلامية في مختلف شعب الحياة الإنسانية العقدية و الاقتصادية و السياسية والتربوية والقانونية؛ ولذا يعتبر الوحي بشقيه (الكتاب والسنة) المصدر الرئيس للفكر الإسلامي؛ وقد أجاب الفكر الإسلامي في مختلف عصوره عن إشكالات عدة في المجالات المذكورة، تمثلت في جملة العلوم والأفكار التي ما فتئت تتبلور وتتأصل بداية من القرن الثاني للهجرة كالفقه وعلوم الحديث وعلم الكلام وغيرها من العلوم؛ ويمكن الاصطلاح على ما انتزع من أحكام وقواعد ومبادئ ومقاصد من الوحي وتسمى (سنن الهداية).

2/ الكون: لا يشمل الفكر الإسلامي الإنتاج الذي يتناول الإسلام كدين موضوعا له فحسب، بل يشمل كل إنتاج ينطلق من الإسلام كمرجعية تحدد رؤيته الكلية، ولذا يعتبر الكون مصدرا للفكر الإسلامي، ويشمل الكون في الرؤية التوحيدية:الكون الطبيعي(سنن الآفاق) وذلك بمعرفة القوانين الكونية الطبيعية في السماوات والأرض والحيوان والنبات والإنسان لاستخراج آيات الله تعالى فيها، ومعرفة السنن الحاكمة لها، وتسخيرها في إعمار الأرض وتحقيق الاستخلاف.

كما يشمل الكون الإنساني (سنن الأنفس) وذلك بدراسة الإنسان والمجتمعات لمعرفة سنن قيام الحضارات وسقوطها، وفي هذا السياق يمكن الاستفادة من الخبرة الإنسانية شريطة ألا تتعارض مع الرؤية التوحيدية نصوصا ومقاصد؛ والمقصود بقولنا إن الكون الإنساني مصدر للفكر الإسلامي لمعرفة سنن الأنفس( الاجتماعية والنفسية) بما هي قوانين أي نواميس وضعها الله تعالى في الأفراد والمجتمعات؛ أما الخبرات الإنسانية وما أنتجه العقل الإنساني -بغض النظر عن اختلاف ملله ومذاهبه- فليست مصدرا للفكر الإسلامي لأنه إنما يأخذ منها ويرد بما يتوافق مع رؤيته ويخدم أهدافه؛ ولا يسلم لها في جميع مقولاتها، فليس كل ما أنتجه العقل البشري –ولو حقق نجح في مهده وظروف تلك المجتمعات- بمصدر للفكر الإسلامي بحيث نأخذه ونطبقه، بل الميزان في ذلك هو الوحي المعصوم نصا ومقصدا؛ ويضيف البعض إلى هذين المصدرين: تراث الأمة الإسلامية، العقل، ثقافة الشعوب الأخرى؛ والذي نراه أن تراث الأمة جزء من الفكر الإسلامي فلا يكون الجزء من الشيء مصدرا له، و أما العقل فهو داخل في مضمون مصطلح الكون؛ وأما ثقافة الشعوب فتستوعبها الخبرة الإنسانية باعتبارها رافدا من روافد الفكر الإسلامي لا مصدرا له.

ويذهب البعض مثل الباحثة نزيهة امعاريج من المغرب إلى التفصيل وتشعيب هذه المصادر فجعلتها على النحو التالي:

**أ/ الوحي الكريم (الكتاب والسنة)**: إن الباحثة نقلت كلاما جامعا لعبد الكريم زيدان وهو قوله:"هذا القرآن ضمان للمفكر المسلم عندما يتكئ ويستند في حلوله على الوحي )القرآن الكريم؛ سواء تعلق الأمر بالعقيدة (أي الأحكام الاعتقادية، أو تزكية النفوس وتهذيبها (الأحكام الأخلاقية)، أو ما يتعلق بأقوال المكلفين (الأحكام العملية)؛ مع اعتقادنا الذي لا يخامره أدنى شك أن الوحي الكريم ما جاء فقط ليبين حقائق العقيدة أو الشريعة في الظاهر والباطن فقط، وإنما هو وحي نزل ليبني الإنسان والأمة والحضارة التي تجعل الإسلام بكل حقائقه ومقاصده وقيمه دستورا يجمع الأمة ويوحد صفها ويميزها عن بقية الأمم والحضارات لا على المستوى العبادات الفردية فحسب، بل على المستوى الاجتماعي أيضا بكل أبعاده الاقتصادية، السياسية، القانونية، الإعلامية، التربوية...

لكن الباحثة سرعان ما ضيقت استيعاب الوحي للكليات الثلاثة التي استهلت الكلام بها من خلال نص عبد الكريم زيدان، لتحصر وظيفته في مجال الإيمان بشكل عام، وتخرج دائرة التشريع وغيره، تقول الباحثة:"فالقرآن والسنة هما الممدان الرئيسان للفكر الإسلامي في جانبه الإلهي، وهما المؤطران له على مستوى تصورات ثالثة؛ يقول الأستاذ حسان عبد الله حسن:" التصور العقدي الشامل ثانيا مكانة الإنسان وعلاقته بالكون ثالثا نشأة الوجود وغاية سيرورته"؛ وهو حصر يتناقض مع ما قاله عبد الكريم زيدان، ومع ما قلناه من باب أولى.

**ب/ العقل**: إن العقل هو الآلة التي بها يفهم الواقع الذي نعيشه في كل أبعاده، كما يفهم به الوحي المبارك، ومبنى الاجتهاد الإنساني في الفكر الإسلامي على هذين الضربين من الفهم كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، إضافة إلى أن العقل المسلم يجتهد في ما لا نص فيه بالاعتماد على المصالح والمفاسد الشرعية جلبا للأولى ودفعا للثانية.

**ج/ تجارب الأمم**: لا تتوقف الإنسانية عن الإبداع والتطور، وإذا تأملنا في مسيرة البشرية لاحظنا بوضوح كيف أن الأمم يأخذ بعضها عن بعض في مجال التمدن، وبتعبير مالك بن نبي إذا غربت شمس حضارة في أمة ما فَلْيُعْلَم أنها تشرق على أمة أخرى؛ وقد استفاد المسلمون من المدنيات التي سبقتهم، كما أن النهضة الغربية الحديثة لم تنطلق من الصفر، وإنما هي بناء على فتوحات علماء المسلمين في مختلف العلوم؛ وقد اعترف كثير من الغربيين بفضل المسلمين في الكثير من المجالات بعد طول تنكر وجحود، ولعل آخرها الشريط الوثائقي الذي أنجزته إحدى القنوات بعنوان"عندما تكلم العالم بالعربية".

**رابعا/ الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي**: يظهر الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي في ناحيتين:

1/ الإسلام مطلق ومتعال على الزمان والمكان، بمعنى أنه ليس نسبيا ومتغيرا بتغير الزمان والمكان، بينما الفكر الإسلامي هو نتاج تفاعل العقل المسلم مع الوحي والواقع الإنساني، وطبيعة هذا التفاعل التغير والاختلاف، ولعل من أبرز الأمثلة العملية على ذلك: اختلاف الأحكام الاجتهادية من زمن لآخر، ومن مجتمع لآخر، وقد ظهر ذلك في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى بشكل واضح، حيث يقال في مصنفات الشافعية: قوله في القديم و قوله في الجديد، وكذلك كل ما يبدعه العقل المسلم من علوم ومناهج في البحث والتدريس والتصنيف، و وطرق الرد على المخالفين، ومنهجية عرض حقائق الإسلام، والنظم الاجتماعية في الاقتصاد والقضاء والعمران إلخ... فكل هذه القضايا التي يخوض فيها العقل المسلم يكون إنتاجه فيها متأثرا بطبيعة البيئة وظروفها، فحقائق العقيدة الإسلامية نفسها غالبا لا تتغير لكن طرق عرضها أ والدفاع عنها تتغير بحسب البيئة وتحدياتها والمسائل المثارة فيها، وقس على ذلك ما عداه.

2/ الفكر الإسلامي ليس معصوما، لأنه اجتهاد العقل المسلم الذي يجري عليه الصواب والخطأ بمقدار توافقه أو مخالفته للوحي نصوصا ومقاصد وقيما؛ فالفكر الإسلامي مهما بلغ أصحابه من العلم والفهم لا يخرج عن كونه اجتهادا بشريا نسبيا، ولعل هذا ما عبر عنه أبو حنيفة بقوله:" إنما قولنا هذا رأي فمن جاءنا بخير منه قبلناه" و عناه الإمام مالك رحمه الله تعالى حين قال كلمته الشهيرة التي صارت قاعدة يرجع إليها:"كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر" وأشار إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وعبر عنه الشافعي بقوله:"رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

وقد تعجبت أيما تعجب وأنا أستمع إلى أحد الباحثين المسلمين وهو عضو في الأكاديمية الملكية البريطانية يقول:"إن التاريخ الإسلامي مقدس، فمن يطعن فيه فكأنما يطعن في العقيدة الإسلامية"؛ و هذا خلط واضح بين الإسلام في عصمته وقداسته و الفهم البشري القابل للخطأ، ومن باب أولى السلوك الإنساني الذي يقترب ويبتعد عن الالتزام بأحكام الإسلام وتؤثر عليه نوازع الهوى، وما يزينه الشيطان.

**رابعا/ خصائص الفكر الإسلامي**

يتميز الفكر الإسلامي بمجموعة من الخصائص تجعل منه فكرا متفردا وأصيلا، ولا يعني ذلك بتاتا أنه معصوم في كل ما أنتجه أو ينتجه، بل أقصى المدعى أنه فكر توفرت له كل إمكانات الوصول إلى الحقيقة؛ وهذه الخصائص يمكن تلخيصها فيما يلي:

**1/ الربانية**:

إن الفكر الإسلامي رباني المصدر والغاية، والربانية نسبة للرب سبحانه وتعالى، أما كونه رباني المصدر فالمراد به أن هذا الفكر يجعل من الوحي الكريم كتابا وسنة مصدرا يبني عليه أحكامه، ويؤسس منه حججه، وينضبط به في مساره، لكنه كما أشرنا من قبل يبقى جهدا بشريا يصيب ويخطئ، وعليه لا يحل لباحث مسلم يعرف الحق ومع ذلك يبقى مصرا على الباطل متعصبا له، ورحم الله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين قال لأبي موسى الأشعري في رسالة القضاء:"لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس ثم هديت فيه إلى رشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل".

والفكر الإسلامي رباني الغاية، أي أن أهدافه تحقيق غايات الإسلام في الفرد والأسرة والأمة والحضارة والإنسانية، بحيث ينتج المعرفة التي تقود الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين، كما أنه يتعقب الفكر الإنساني أجمع بما فيه الفكر الإسلامي ويمارس عليه النقد ليبين ما قد يعتريه من خلل في الفهم والاستنباط والتفكير، وما ينبني على ذلك الخلل من اضطراب في التصرف السلوك.

**2**/ **الشمول:**

فالفكر الإسلامي لا يختص بمجال دون آخر، ومرد ذلك إلى شمولية الدين الإسلامي في حد ذاته؛ إذ لما كان الإسلام شاملا لمناحي النشاط الإنساني المختلفة، فرديا وجماعيا، دينا ودنيا، اقتضى ذلك أن يصطبغ الفكر الذي يجعل الإسلام منطلقا له بصبغة الشمول، يقول الله تعالى:"قل إن صلاتي و نسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" أي أن الإسلام ممتد في حياة الإنسان من الناحية الزمانية بحيث يستغرق جميع حياته، وممتد من الناحية الموضوعية فيستوعب جميع تصرفاته، وفي مختلف مجالات الحياة، فهو دين يتضمن أنواع العبادات، المعاملات، السياسة، الجرائم والعقوبات، الإعلام، ....

هذا الشمول هو الذي عبر عنه الفقهاء بقولهم: كل تصرف من المكلف سواء كان قولا أم فعلا، أو إمساكا عن قول أو فعل، لا يخرج عن أحد الأحكام التكليفية الخمسة، أي أنه إما مباح أو مندوب أو واجب، أو مكروه أو حرام، أي شمولية الشريعة الإسلامية لمختلف أبعاد وأنواع وأقسام تصرفات الفرد والجماعة.

**3**/ **الواقعيّة:**

المراد بالواقعية قدرة هذا الفكر على أن يتمثله البشر أفراد وجماعات في حياتهم، فهذا الفكر ليس دون ما يحتاجون إليه فيكون أدنى من طموحاتهم وآمالهم؛ كما أنه ليس فوق طاقتهم وقدرة تحملهم، كما أنه ليس معان مثالية وأحلاما جميلة لا يمكن تحقيقها في عالم الشهادة، ومن أبرز ما يصدق هذه الواقعية أننا لا نجد فيما بحثه الفكر الإسلامي غالبا وخصوصا في عصور الازدهار الحضاري ما لا يستطيع الناس إدراكه والعمل به؛ كما أن أحكام الفقه الإسلامي مبنية على مراعاة الفطرة الإنسانية ومدى قدرتها على التحمل والثبات على ذلك، وهو ما يسميه القرآن بالوسع والاستطاعة:"لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" " فاتقوا الله ما استطعتم" " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا"، وإذا لاحت بوادر المشقة التي لا تطاق، أو لا يستطيع المكلف المداومة على العمل ببقائها حل الترخيص"يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"؛ وقد أحسن العلامة مصطفى السباعي رحمه الله تعالى صنعا حين عنون لأحد مصنفاته النافعة بقوله:"دعوة الإسلام واقعية لا خيال".

كما أن الإسلام جاء مقوما للواقع الإنساني لا مقررا له على ما هو عليه من الباطل والجهل والضلال، فالإسلام لا يترك الناس هملا يعبثون في الحياة كيف شاءوا، بل جاءهم بما يحقق سعادتهم، ويستنقذهم من الجهالة والضلالة إلى الهداية والرشد، قال تعالى:"كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور"؛ وكذلك الفكر الإسلامي ليس في الأصل فكرا يكتفي بتوصيف أحوال المسلمين وغض الطرف عن انحرافهم وزيغهم، وإنما هو فكر يهدي للحق، يبين الحق ويقود إليه، يفضح الباطل ويحذر منه، بالدليل والبرهان، بل هو فكر يفترض فيه بما يملك من موجهات معصومة أن يستبق الزمن وأحوال الناس فينبه إلى الخلل قبل حدوثه، فإن حدث فقبل استفحاله وانتشاره؛ ولا يزال علماء الأمة في كل عصر ومصر ينصحون الخاصة قبل العامة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم؛ فهذا مالك رحمه الله تعالى يمد ويجلد لأنه أفتى بأنه ليس على مكره طلاق حين خشي أولوا الأمر أن تتخذ فتواه ذريعة للتنصل من البيعة، وهذا أحمد يجلد جلدا لو جلد به جبل لانهد في مسألة خلق القرآن، فما رجع عن قوله ولا لان، وهذا ابن تيمية يعيش شطرا كبيرا من حياته ويموت سجينا من أجل آرائه ومواقفه، وهذا العز بن عبد السلام يترك القاهرة فيلحقه أهلها فيضطر السلطان إلى مراضاته، وستظل مسيرة العلماء الربانيين لا تتوقف عن بذل النصح للأمة وأولياء الأمور دون خوف ولا وجل، حتى تبقى حقائق الإسلام حية نقية لا تشوبها الشوائب.

**4ً**/**الوسطيّة:**

إن المتتبع للفكر الإنساني يلاحظ أن المدارس والمذاهب والمفكرين والعلماء كثيرا ما تنتهي إلى مواقف متعارضة، والسبب في ذلك قصور العقل الإنساني عن إدراك الحقيقة من كل الوجوه؛ وكثيرا ما ينبثق عن تلك الآراء والمذاهب المتعارضة إلى حد التناقض أحيانا رأي أو مذهب يجمع بين المتعارضات، ويقف موقفا وسطا بين تلك الآراء المتطرفة يمينا وشمالا، مبينا أن كل من هذه المذاهب نظر من زاوية فقط، أو ركز على جانب فحسب، وأن الحق يقتضي الجمع بين زوايا النظر، والتأليف بين مختلف الأبعاد؛ وقد يحدث هذا أيضا في الفكر الإسلامي أحيانا وخصوصا حين يحتدم الخلاف ويجمد الفكر وتبرز العصبيات المقيتة للمذهب أو الاتجاه الفكري. لكن الوسطية في الإسلام أو في الفكر الإسلامي لا تعني لزوم الوسط في كل المسائل والقضايا، لأن بعض المسائل لا يمكن فيها التزام الوسط في الأمور، بل نجد الإسلام وقف فيها موقفا حاسما صارما واضحا، مثل التوحيد ونبذ الشرك، موالاة المؤمنين والبراءة من الكفر والشرك وأهله، تحريم الموبقات، ونحو ذلك.

فالوسطية تعني عد الميل ذات اليمين أو الشمال فيما يكون فيه الحق الاعتدال والوسط، فعلى سبيل المثال اختلف الفكر الإنساني في أي المصالح نقدم مصالح الفرد(المذهب الفردي الليبرالي) أم مصالح الجماعة(الفكر الاشتراكي الماركسي) وتصور كل طرف أن الحق معه وحده، وأن مراعاة مصالح الفرد يلزم عنها بالضرورة الإهمال التام لمصالح المجموع، لكن بين الفقهاء المسلمون المعاصرون خصوصا والمتحررون من عقدة الغالب والمغلوب أن التشريع الإسلامي تشريع رباني وسط، فلا يمكن القول إنه يميل إلى تغليب كفة الفرد، كما لا يمكن القول إنه تشريع يعزز مصالح الجماعة على حساب الفرد،فجاء هذا التشريع بتركيب معجب بين الفردية والجماعية بحيث يعد فعلا كما عهدناه تشريعا فريدا من نوعه، لا شرقي ولا غربي بل سماوي رباني.

ومن صور الوسطية أيضا أن الإسلام أوجب التكاليف الشرعية مراعيا الفطرة البشرية، فالإنسان مثلا يحب أن يمدح على ما يأتي من الخير، وفي الوقت نفسه يأمره الله تعالى بالإخلاص في العمل، فنجد الشريعة جمعت بين المطلبين وتوسطت فيها بشكل مبهر، فأمرت العامل بالإخلاص، وأمرت من أسدي إليه المعروف أن يشكر، قال عليه السلام" إنما الأعمال بالنيات" وقال عليه السلام:"لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

ومن صوره أيضا توسطه بين الرهبانية التي تدعو إلى البعد التام عن الدنيا وملذاتها ولو كان المتلذذ به أمرا فطريا كالاقتران بالمرأة، وبين الانغماس في الملذات والموبقات ونسيان الدار الآخرة، فأما التوجه الأول فهو ما تدعو إليه الكنيسة المسيحية، وقد أدى إلى فظائع بين أسوار الكنائس من أعظمها الاعتداء الجنسي على الأطفال، إضافة إلى ارتكاب الفواحش، وسبب ذلك أن الغريزة الجنسية متأصلة في خلق الإنسان فكيف يتنكر لها، فلما حاول ذلك صرعته وأوقعته في العظائم والموبقات، وأما التوجه المادي فهو شعار المدنية المعاصرة حيث تنكرت للدين، فكانت النتيجة أن حقق الإنسان مطالب الجسد وأشبعها، لكنه منهك روحيا بحيث ينتحر لأبسط أزمة، وأتفه مشكلة، لكن الدين الإسلامي وقف موقفا وسطا بين الإفراط والتفريط في مطالب الروح كما في مطالب الجسد، فأباح الزواج وضبط أحكامه حتى تتحقق المقاصد التي لأجلها شرع، وهي مصالح تعود على الفرد والمجتمع بالسعادة في الدارين.

لقد حدث على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام أن نفرا من أصحابه كأنهم زهدوا في الدنيا زهدا متطرفا دعاهم إلى معاندة الفطرة الإنسانية من الأكل والنوم ومعاشرة النساء، فانتهى خبرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبين لهم ولمن يأتي بعدهم وسطية ديننا وأنه لا مكان فيه للغلو، جاء في صحيح البخاري:"جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي، عليه السلام، فلما أُخْبِرُوا كأنّهم تَقَالُّوها فقالوا: أين نحن من النبي، صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال:" أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**".**

**5**/ **الثبات والمرونة:**

إن المتأمل في أحوال الناس يلاحظ أنها ليست على صورة واحدة من عدة نواح، ومن هذه النواحي الثبات والتغير، فبعض المسائل تتسم بالثبات، وبعضها الآخر متغير، ومن هنا كان الفكر الفعال والناجح هو الذي يستطيع أن يميز بين هذه المسائل فيعطي للثبات ما يناسبه وللمتغير ما يلائمه.

وقد جاء الإسلام باعتباره دينا سماويا من لدن الحكيم الخبير مراعيا لهذه الجوانب، فنجد نصوص فيها القطعي الدلالة والظني الدلالة، وبعض المجالات جاءت الأحكام فيها قاطعة لا تقبل اجتهادا ولا تغييرا، وبعض المجالات نظمها الإسلام إما عن طريق النصوص الظنية التي تحتمل وجوها، وإما عن طرق قواعد كلية تصلح للتطبيق في كل عصر ومصر، بما يناسب تلك البيئة وذلك الزمن، أو عن طريق إعمال المقاصد الشرعية؛ فمن الثوابت مسائل العقيدة والشعائر التعبدية من الصلاة والصيام والحج والزكاة... ومن المتغيرات سائر النظم التي تنظم شؤون الاقتصاد والسياسة والإعلام والتربية والتعليم والقضاء، وهكذا... فالشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وحج لأنها في غالب أحكامها لا تتغير نجد نصوا جزئية كثيرة تضبط أحكامها بحيث يمكن القول بأنه لا مزيد في الغالب على ما ذكره فقهاء السلف؛ بينما توجد مساحة كبيرة جدا عرضة للتغير من زمن إلى زمن، ومن مجتمع إلى مجتمع، فألفينا الشريعة ضبطت أحكامها إما بقواعد كلية، أو بنظام المصالح والمفاسد جلبا ودفعا، بحيث لا يجد العقل المسلم أي حرج في البحث عن كل ما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد، وهو في هذا يمكنه الاستفادة من الخبرة الإنسانية ولا ضير عليه، فبلاد المسلمين اليوم مثلا نظمت حركة السير فيها من خلال تلك المصابيح المتوهجة عند ملتقى الطرق، ومن خلال اللوحات الإرشادية على الأرصفة، ولا شك أن هذه الأنظمة ابتكار غربي خالص، لكن لما وجدنا نحن المسلمين فيها مصلحة واضحة وهي حفظ الأرواح والأموال، وتحقيق النظام ودفع الفوضى والتنازع، استفدنا منها وانتفعنا بها دون أدنى الحرج إلا التأسف على أننا كنا الأولى بوضعها لأن ديننا دين أمر بالعلم والنظام وعمارة الحياة الدنيا بكل ما يعود علينا بالسعادة والفلاح في الدين والدنيا.

**6**/**العموم في الخطاب:**

لقد أعلن الوحي الكريم بكل وضوح بأن هذا الدين يتوجه بخطابه إلى البشر جميعا بل إلى الإنس والجن، قال تعالى:"قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**"**؛ وقال عليه الصلاة والسلام:"وكان النبي يبعث في قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة"؛ فشريعة الإسلام لكونها عالمية في خطابها اقتضى ذلك أن تبنى على المشترك الإنساني الذي لا يتبدل ولا يتغير ما بقي الإنسان، وهذا المشترك الإنساني هو الفطرة، ولذا كان الإسلام دين الفطرة بل شك، قال تعالى:"فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها".

كما تميّز الإسلام أيضا بأنّ خطابه موجّه إلى كل فئات الناس وطبقاتهم، بينما باقي الملل تجعل الناس طبقات، ويختلف خطابها الديني من طبقة لأخرى؛ فرجل الدين يُطلب منه الكثير من الالتزامات بخلاف غيره، وهذا يجعله متميزاً أيضاً على غيره من فئات الناس، و هذا الأمر يعزز وجود الطبقات التي يتسلط بعضها على بعض، بلا إن بعض الملل تجيز لخاصة القوم في الديانة الحصول على بعض الامتيازات لا يحصل عليها البقية.

ومن هنا نجد الفكر الإسلامي يتميز بهذه الخاصية في خطابه، فهو خطاب عالمي يدعو الناس جميعا إلى الكلمة السواء، إلى التعاون على ما فيه خير البشرية جمعاء، فهو فكر لا ينغلق على ذاته متعاليا على الغير، بحيث لا يقبل الحوار أو التعايش أو التعاون، لكن في الوقت نفسه فكر يرفض التعاون أو الحوار أو التعايش الذي يدعوه إلى التفريط في عقائده وشرائعه، أو التنازل عن مقدساته، وبعبارة أجمع وأدق، إنه فكر يحاور لكنه يحافظ على ذاته، يتعايش لكنه لا يقبل الذوبان في ثقافة الآخر، يتعاون لكن في الخير لا في الشر، في الحق لا الباطل.

**سادساً**/ **الإيجابية:**

أي أنّ الآثار المترتبة على الإيمان بالفكرة الإسلاميّة، والمترتبة على ممارستها، هي آثار طيبة ونافعة ومجدية، إنه فكر يجعل الإنسان يتحرك بيقين في نصر الله تعالى وتوفيقه، لأنّ الناس تُحاكم الأفكار على ضوء نتائجها وآثارها المحسوسة، واليوم نجد أنّه يسهل على الناس أن يحكموا على الفلسفة الغربيّة من خلال الواقع الاجتماعي وما ينبثق عنه؛ مع ملاحظة أننا لا نتكلم عن العلم وما نتج عنه من تكنولوجيا، لأنّ العلم وما نتج عنه هو أمر عام لا يخص أمة أو حضارة بعينها.

**خامسا/ الوحي مصدرا للمعرفة والحضارة**

لقد كان العرب قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام أمة في غاية الضلال، قال الله تعالى: ﭽﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭳ ﭼ (الجمعة/ 02) فلما جاء الإسلام صاغ منهم أمة عظيمة امتد سلطانها مشرقا ومغربا، وبنى بهم حضارة لا تزال شواهدها المادية والمعنوية منتشرة في كثير من الدول؛ فكيف تحولت تلك الأجيال من حياة البداوة إلى التحضر، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الأمية والجهل إلى أنوار العلم والحكمة؟.

يتفق الباحثون على أن سبب هذا التحول الكبير يرجع إلى الوحي الكريم (الكتاب والسنة)، وإلى تلك الجهود العظيمة التي قام بها عليه الصلاة والسلام تعليما وتربية، فقد جاء الوحي الكريم ببناء متكامل وشامل للإنسان والمجتمع والأمة على اعتبار عالمية الرسالة وخاتميتها، ويمكن تلخيص هذه العناصر التي تقوم عليها الحضارة في الوحي الكريم فيما يلي:

1**/ الإيمان بالله تعالى هو الطاقة الدافعة للبناء**:

إن الإيمان عنصر جوهري في بناء الحضارة، فهو يشكل الطاقة الدافعة والمحركة للجهد الإنساني، لأن بناء الحضارة يستدعي الصبر والمثابرة والاستمرارية وهذه لا يُذلِّلُها إلا إيمان مستقر في أعماق الوجدان الإنساني، يقول ابن خلدون:"إنها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي (بالتوحيد) وما يتبعه من العمل مستولية على القلب، فيستتبع الجوارح، وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني"، ويقول عبد المجيد النجار:"وأشد ما يكسب الفكرة الدرجة الإيمانية في النفس هو الدين، حيث تستشعر النفوس استشعارا جماعيا قداسة المصدر الذي أملى الفكرة، فتوجه كل قوى الإنسان في مرضاة ذلك المصدر بتحقيق ما حدد من غاية للحياة"؛ ولقد صدق المفكر مالك بن نبي رحمه الله تعالى حين جعل الفكرة الدينية العامل المركب لعناصر الحضارة الثلاثة وهي: الإنسان والتراب والزمن، فبدون الإيمان تتحول هذه العناصر إلى مقومات جامدة، ومقومات هامدة؛ وقد أبدع فيلسوف الحضارة المفكر الجزائري مالك بن نبي أيما إبداع وهو يصور لنا أثر دفقة الروح في قيام أي حضارة، بل ذهب إلى أبعد وأعمق من هذا حين بين بأن الطاقة الروحية وراء كل إبداع إنساني، وأن ضعف هذه الطاقة هو السبب في انهيار الحضارة، يقول رحمه الله في عبارة عميقة بليغة تحتاج أن تحفظ لتكون محفزا وموجها للعمل:" **لأن الروح والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد (البناء الاجتماعي) الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض، وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي: عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى تبدأ فيها دورة جديدة ... وفي البقعة المهجورة يفقد العلم معناه كله، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل، عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان**" (**مالك بن نبي**، وجهة العالم الإسلامي، ص: 31).

ولقد أحسنت الأجيال الأولى الفهم عن الله تعالى وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، فتحولت من أجيال تائهة عاطلة إلى قدوات معطاءة، تملأ جنبات الأرض خيرا وصلاحا حيثما حلت، فازدهرت الحياة، وصارت الأرض غير الأرض، وأعطوا دروسا عظيمة في التضحية في سبيل الله تعالى بكل ما يملكون من مال ووقت وجهد، وما كان ليكون هذا العطاء والاندفاع في البناء لولا الإيمان الذي صنعه القرآن العظيم وتولاه الرسول الكريم بالرعاية والمتابعة والتوجيه.

**2/ الاستخلاف المبني على العبادة والعمارة**:

لقد بين الوحي بوضوح تام بأن الإنسان خليفة في الأرض، قال تعالى: ﭽﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙﭚ ﭼ (البقرة/ 30) ثم بين القرآن الكريم والسنة والنبوية أن هذا الاستخلاف مبني على ركيزتين أو ركنين هما:

أ/ عبادة الله تعالى: قال تعالى: ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸﭹ ﭼ (الذاريات/ 56).

ب/ عمارة الحياة الدنيا: قال تعالى في خطاب صالح عليه السلام لقومه: ﭽﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﭼ (هود/ 61).

**3/ الدعوة إلى طلب العلم وإعمال العقل:**

إن القارئ لكتاب الله تعالى يلاحظ أنه لا تكاد تخلو سورة من سوره من التصريح أو الإشارة إلى العلم وإعمال العقل، وقد بلغت نصوص الكتاب من الكثرة أن أنجزت بحوث علمية حول إعمال العقل والنظر العقلي في القرآن الكريم، ومكانة العلم وأهله في القرآن الكريم واضحة ومعلومة قال تعالى: ﭽﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﭼ (فاطر/78) كما أن القرآن الكريم يأمر الناس بالنظر في الكون وأحوال السابقين نظر المتدبر الذي يهتدي في النهاية إلى ما فيه فلاحه وهداه، قال تعالى" ﭽﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛﭜ ﭝ ﭞ ﭟﭼ (الروم/ 42) وضرب الوحي الأمثال للناس حتى يهتدوا إلى الطريق الصحيح الذي يقودهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فقد ورد في الحديث الصحيح تمثيل النبي عليه السلام للمجتمع بأناس ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب آخرون أسفلها، فكان الذين بأسفلها كلما احتاجوا ماء اضطروا للصعود إلى أعلى السفينة فيمروا بمن عليها، فقال قائلهم**:" لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**" وهو مثل عظيم لمن يفكر في مصلحته فقط، ولا ينتبه إلى ما قد يصيب الآخرين من عواقب وخيمة، كما ينبه إلى ضرورة الوعي بمقتضيات الحياة الجماعية والتي يقع على رأسها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثل هذه الأمثال التي تبث في وعي الإنسان التفكير في الشأن العام وسنن المحافظة على تماسك الجماعة وأمنها كثير في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

كما ذكر الوحي إلى العديد من ضروب إعمال العقل:أفلا تتذكرون، أفلا تتفكرون، أفلا يتدبرون، أفلا يعقلون، وقال سبحانه وتعالى في آية جامعة: ﭽﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭼ (ص/29) يقول أبو حامد الغزالي:" وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، ولكن قد جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده، ومجراه ومسرحه وطريقته وكيفيته".

فلا يمكن أن تقوم نهضة في أمة تزهد في طلب العلم، وتضع العواثير أمام التفكير الذي هو ركيزة هامة في مسار النهضة وبناء الحضارة، ولذا لا غرابة في أن نجد الوحي مليئا بالحديث عن العمليات العقلية، وعن مناهج الاستدلال السليم، ودحض الشبهات والتخرصات والظنون والأوهام والأساطير التي يتمسك بها البعض من أجل تبرير الضلال ومعاداة الحق وأهله.

4**/ تزويد العقل الإنساني بالمعارف الضرورية لإقامة العمران وبناء الحضارة واستمرارها**:

إن العقل الإنساني طاقة ونعمة عظيمة بلا شك، لكن ذلك لا يعني أنه يستطيع الوصول إلى كل ما يريد، وربما وصل إلى بعض المعارف المهمة بعد لأي؛ ومن ثم نجد الوحي الكريم زود الإنسان بمجموعة من المعارف الهامة في بناء الحضارة والمحافظة عليها، وأول هذه المعارف الغيبيات التي لا يستطيع اقتحام عالمها، وإن فعل جاء بالأعاجيب، لذا تكفل الوحي بتعريف الإنسان بعالم الغيب، كما تكفل الوحي أيضا بوضع الشريعة التي تكون منهج الحياة في كل أبعادها الفردية والجماعية، ولأنها شريعة مبنية على مراعاة مصلحة الإنسان، والإنسان بقدراته العقلية المحدودة من ناحية، وسيطرة القوة الشهوانية الرابضة في أصل خلقته من ناحية أخرى، وتزيين الشيطان للعمل السيئ من ناحية ثالثة، لا يستطيع هذا الإنسان أن يميز بين النافع والضار؛ لأجل ذلك كله تكفلت الشريعة ببيان التشريع في كل مجالات الحياة، وما كان منه بطبيعته عرضة للتغيير وكلته الشريعة إلى الاجتهاد المنضبط بالمقاصد الشرعية.

إضافة إلى جانب التشريع تكفل الوحي أيضا بتعريف الإنسان بنفسه وأحوالها( النفس اللوامة، المطمئنة، الأمارة بالسوء، فبين شدة حب الإنسان للمال، وحرصه على الدنيا، وأسباب كبره وطغيانه وشحه، وغفلته وضلاله، كما زود الوحي هذا الإنسان الخليفة بسنن التغيير الاجتماعي مثل سنة التغيير الاجتماعي: ﭽﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﭼ (الرعد/ 11) ، وسنة الاستخلاف الاجتماعي ﭽﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﭼ (يونس/ 14)، وسنة إهلاك الأمم ﭽﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﭼ (الإسراء/16) ،... وغير ذلك من السنن الاجتماعية التي يحتاج إليها الإنسان والأمة في مسار بناء الحضارة سواء منها ما تعلق ببناء الإنسان كفرد، أو بناء الأسرة، أو بناء الدولة والأمة والحضارة، لأن الإنسان الفرد والأسرة والدولة والأمة ما هو في الواقع إلا تدرج في بناء الحضارة.

كما نجد الوحي الكريم سباقا في التنبيه إلى سنن المحافظة على نعمة الريادة ومن تلك السنن: التوبة والإنابة على مستوى الفرد، لأن الذي لا يتوب كالمريض الذي لا يعترف بمرضه، ومن ثم هيهات أن يذهب إلى الطبيب أو يتناول الدواء، فتكون النتيجة أنه لا أمل له في الشفاء، قال تعالى: ﭽ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﭼ (النور/31)

والأمر بالمعروف والنهب عن المنكر قال تعالى ﭽﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭼ (آل عمران/ 110)

وقال عليه الصلاة والسلام:" **والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجابُ لَكُمْ**"، وشكر الله تعالى على نعمه قال تعالى: ﭽﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭼ (إبراهيم/ 7)

والأمر بالوحدة والنهي عن الفرقة والتدابر قال تعالى: ﭽﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘﭙ ﭚﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭼ (الأنفال/ 46)

وقال عليه الصلاة والسلام:" **لا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ"** وغير ذلك من السنن الإلهية في هذا الباب؛ ومن أهم ما بينه القرآن الكريم وزود به الإنسان طبيعة العلاقة بين الإنسان والخالق(العبودية) وعلاقة الإنسان بغيره من البشر(الحقوق والواجبات) علاقة الإنسان بالكون( التسخير).

**التحديات الداخلية للفكر الإسلامي**

إن المتأمل في حالة الأمة الإسلامية قبل مرحلة الاستعمار يوقن جازما أن ما حل بها لاحقا - من وقوعها تحت سلطانه- كان نتيجة طبيعية ومفهومة، وبتعبير مالك بن نبي كانت الأمة الإسلامية قد سرت فيها القابلية للاستعمار، أي أنها وفرت كل الظروف والمقدمات التي تؤدي إلى تلك النتيجة المؤلمة؛ وفي هذه المحاضرة سنحاول الوقوف عند بعض من أهم السمات الدالة على أن هذه الأمة تعيش أزمة حقيقية، هذه السمات التي شكلت ولا تزال مجالا خصبا لكتابات الفكر الإسلامي، فالقاسم المشترك والجامع لهذه السمات أنها وجدت في أمتنا كإفراز طبيعي لتراجعها الحضاري، ولذا جعلناها تحديات داخلية، أي أن الأعداء المتربصين بنا لم يكن لهم تسبب واضح و مباشر في تشكلها وانتشارها، وإنما صار لهم إسهام في ترسيخ هذه السمات بعد أن صار زمام الأمور ومقاليده بأيديهم في مختلف أقطار أمتنا.

وينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن بناء شيء من الصفر أهون بكثير من ترميمه، فكيف إذا كان هذا الشيء هو أعقد مخلوق، أعني الإنسان، ومن باب أولى المجتمع والأمة، وقد انتبه مالك بن نبي مبكرا لهذه المسألة وسمى الأمة الإسلامية "أمة خرجت من دورة حضارية"، وتحدث بلغة عالم الاجتماع الخبير بأمراض الإنسان والمجتمع عن السمات والأمراض التي تعاني منها أمتنا.

إن أمتنا الإسلامية التي نعتز بالانتماء إليها رغم ما تعيشه من وهن وضعف، دخلت دورة حضارية، وقادت العالم لقرون، علميا وفكريا وسياسيا وعسكريا، ومارست التثاقف الحضاري مع أمم شتى، لكن يبدو –والله أعلم- أن هذا التثاقف لم يكن مدروسا ولا مضبوطا، فجَرَّ علينا الويلات الفكرية والعقدية والسلوكية، فلما توقف نبض الروح، وتراخت الهمم عن الاجتهاد، وتقاصر العقل المسلم عن الإبداع، دخلت الأمة في نفق الجمود الفكري الذي انتهى بها إلى نهاية دورتها الحضارية.

وابتداء من هذه المرحلة بدأت المعاناة الحقيقية، إذ تجَمَّعَ في هذه الأمة تراث يعج بقضايا وإشكالات غريبة عن بيئتنا من جهة، ومن جهة أخرى ما أفرزه غلق باب الاجتهاد من جمود وتقليد وعصبية مذهبية في الأصول والفروع، فكانت النتيجة أمة وسطا، لكنه غير الوسط الذي أراده القرآن الكريم تشريفا وتكليفا، لقد صرنا وسطا بين وضعين، وضع تكون فيه الأمة على الفطرة فيسهل علاجها بالدين القويم، ووضع تكون فيه الأمة صانعة للتاريخ، أما نحن فبينهما حيث كنا نصنع التاريخ وننتج المعرفة ثم انحدرنا عن تلك الرتبة وخرجنا من دورتنا الحضارية؛ ومن هنا أعيا هذا الوضع المصلحين، لأن مهمتهم متشعبة ومعقدة، إذ ينبغي عليهم مراجعة تراث الأمة لمعرفة مواطن الخلل فيه والتنبيه عليه، وفي الوقت ذاته الإبقاء على النافع منه وتنميته في الفرد والمجتمع، يضاف إلى ذلك الاجتهاد في توعية الأمة حتى لا تتحول إلى فريسة سهلة للأفكار والمعتقدات الوافدة والهادمة لهويتنا.

وأُمُّ المعضلات التي واجهت وما تزال تواجه الدعاة والمصلحين هي المسألة الأولى، لأن الفهم الخاطئ لقضايا الدين سينبني عليه لا محالة سلوك خاطئ يصعب علاجه، لأن المتمسك به يرى نفسه متمسكا بالدين، ولله دَرُّ الإمام ابن عاشور حين راح يشرح الحكمة من اختيار الله تعالى العربَ محلًّا للرسالة الخاتمة، فجعل من الحكم أن العرب لم يكن لهم ميراث ديني سماوي يتعصبون له؛ وبناء على ما تقدم فقد رسخت في الأمة فهوم خاطئة لقضايا حساسة في ديننا، كان لها ولا يزال أثر واضح في تأخر نهضتنا، وطول ليلنا، ويمكن إجمال هذه الفهوم فيما يلي:

**أولا/ سوء فهم عقيدة القضاء والقدر**:

انتشر في الأمة الإسلامية خصوصا في القرون الأخيرة التي سبقت مرحلة الاستعمار فهم خاطئ لعقيدة القضاء والقدر، حيث صار مفهوم هذه العقيدة الجليلة هو الاستسلام للواقع باعتباره قدرا إلاهيا لا يمكن تجنبه، فضلا عن القيام لتغييره إلى الأحسن، وكان من نتائج ذلك قعود الناس عن الأخذ بأسباب إصلاح الواقع الفردي والاجتماعي؛ ولولا خشية الإطالة والخروج عن صلب الموضوع لاستعرضنا جملة من الأمثال الشعبية(لأن المثل الشعبي يختزن الأفكار العميقة التي تصنع السلوك مصاغة بأسلوب مختصر) والسلوك اليومي الذي يؤكد انتشار هذا المفهوم السلبي والخاطئ لعقيدة القضاء والقدر.

ولا شك أن الأجيال الأولى التي صاغها الوحي الكريم جمعت بين الإيمان بالقضاء والقدر والضرب في الأرض جهادا في سبيل الله تعالى، وطلبا للعلم والرزق، وتحصيلا لأسباب القوة بمختلف أشكالها، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وغير ذلك من أنواع النشاط والحركة الدالة على أن الاستكانة للواقع ليس من الدين في شيء.

والأدلة على فساد هذا الفهم أن القرآن الكريم دعا إلى قتال الكفار ورد عدوانهم، ودفع الظلم ومقارعة الظالمين، وبين أن تغيير حال الأمة إنما يكون في عالم الأنفس، قال تعالى:" ﭽﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖﯗ ﭼ (الرعد/11)، فلو كان الإيمان بالقضاء والقدر يعني الاستسلام للواقع وعدم الاجتهاد في إصلاحه، إذن لقعد رسول الله عليه الصلاة والسلام عن مواجهة ما كان عليه قومه من فساد في الاعتقاد والسلوك، وقد اعترض أحدهم على إباء عمر رضي الله عنه الدخول إلى بلاد الشام لما علم بطاعون عمواس فقال:"أتفر من قدر الله تعالى يا عمر؟ فقال الفاروق رضي الله عنه:"بل نفر من قدر الله إلى قدر الله"، ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلاني قوله:"أنا أغالب الأقدار بالأقدار"، وقد صدق الشيخ رحمه قولا وفعلا، فقد كانت مدرسته التي أسسها ذخرا للمسلمين عند الحاجة، فما إن نادى المنادي: حي على الجهاد ! حتى أمدت تلك المدرسة صلاح الدين الأيوبي بجحافل من المجاهدين ساهموا في تحرير الأقصى من قبضة الصليبيين.

والعجيب أن الاستعمار الفرنسي ومن خلال جريدة )المُبَشِّر( استغل هذا الفهم الخاطئ لتبرير وجوده في الجزائر، فجاء في أحد أعدادها أن وجود فرنسا في الجزائر وخروجها منها إنما هو بقدر الله وإرادته:" **فلا يخطر ببال عاقل أن هذه الدولة (أي فرنسا) التي ملكت هذا الإقليم بقدرة مالك أزمة الأمور وبقدرته سبحانه وتعالى يبقيه بها فلا يمكن يتركها (كذا) لغيره إلا بمراده عز وجل".**

**ثانيا/ تشويه مفهوم التوكل**:

إن التوكل في المنظور الإسلامي الصحيح يجمع بين الأخذ بالأسباب والافتقار إلى الله تعالى، وطلب العون والتوفيق منه، مع الاعتقاد الجازم بقدرة الله تعالى المطلقة، ونصوص القرآن الكريم الكثيرة، وسيرة النبي الكريم تشهد لهذا المضمون والمعنى للتوكل؛ فالقرآن الكريم أمر الرسول عليه السلام بمشاورة أصحابه(والمشاورة من الأسباب التي تحقق النصر بإذن الله تعالى) مع الاعتماد على الله تعالى وطلب العون منه، قال تعالى: ﭽﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺﭻ ﭼ (آل عمران/ 159)؛ وأمر الله تعالى بإعداد العدة لمواجهة الكفار فقال جل جلاله: ﭽﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹﭼ أي اجتهدوا في تحصيل أسباب النصر المعتادة بين البشر.

لقد انكسر المسلمون في أحد بسبب ما أحدثه بعضهم من اختلال في عالم الأسباب(نزول الرماة عن الجبل مخالفين بذلك تعليمات الرسول عليه السلام) فوجدنا القرآن الكريم يمعن في غرس مبدأ السننية والأخذ بالأسباب في حياة المسلمين بحيث استنكر تساؤل بعضهم عن سبب ما أصابهم في هذا اليوم الأليم، فقال تعالى: ﭽﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒﰓ ﭼ (آل عمران/ 165) قال صاحب التحرير والتنوير:"فإِنَّ قولهم:"أنى هذا"مما يُنْكَرُ، ويَتَعَجَّبُ السامع من صدوره منهم بعدما علموا ما أتوا من أسباب المصيبة، إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فطنة؛ وقد جاء موقع هذا الاستفهام بعدما تكرر: من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر الرسول... ثم ذيل الإنكار والتعجب "قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير" أي إن الله قدير على نصركم وعلى خذلانكم، فلما عصيتم وجررتم على أنفسكم الغضب قدر الله لكم الخذلان".

وإذا كان ما وقع في أحد درسا في التوكل في شق الأخذ بالأسباب، فإن ثمة درسا آخر تلقاه الصحب الكرام في الشق الثاني وهو الافتقار إلى الله تعالى بالدعاء مع اليقين في أنه وحده من ينصرهم أو يخذلهم، وأن الأسباب التي أعدوها من العدد والعدة والخطة وغيرها لن تغني عنهم شيئا من دون عون الله ونصره ولطفه وغير ذلك من جليل صفاته وعظيم أسمائه، وكان ذلك في غزوة حنين، يقول الله تعالى مصورا الموقف في بيان يأسر القلوب: ﭽﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣﮤ ﮥ ﮦﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧﯨ ﯩ ﯪ ﯫﯬ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙﭚ ﭛ ﭜ ﭝﭞ ﭼ يقول محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى رحمة واسعة:"... ولذلك كان موقع قوله(ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ) بديعا، لأنه تنبيه على خطئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم، أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم".

وربما التبس على البعض في الأخذ بالأسباب صنيع الله تعالى مع أنبيائه وأوليائه في خرق العوائد لهم وحصول المطلوب دون أسباب فيما يظهر، والحقيقة التي لا امتراء، والتي نطق بها الوحي كتابا وسنة هي أن المؤمن مكلف شرعا بتعاطي الأسباب المؤدية إلى حصول النتائج المطلوبة، وإنما تتدخل الإرادة الإلهية فتخرق العوائد حين يستفرغ المكلف طاقته في عالم الأسباب، فيأتي العون الإلهي رحمة ولطفا وتكريما، والأدلة والشواهد على ذلك تربو على الحصر، ومنه خروج رسول الله عليه الصلاة والسلام للهجرة، فقد تكتم على خروجه حتى مع أقرب صحبه إليه وهو الصديق أبو بكر رضي الله عنه، وجاءه عند اشتداد الحر متلثما، ثم اختبآ في غار ثور ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب، إضافة إلى العدول عن المسار الطبيعي الذي تسلكه قريش إلى المدينة، وغير ذلك من أنواع حسن التصرف التي علمنا إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليربينا على أن التوكل لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، بل التوكل الحقيقي هو الجمع بين الاعتماد التام على الله تعالى مع استجماع أسباب النصر والنجاح.

**ثالثا/ سوء فهم وتمثل معنى الزهد**:

لقد كان الأنبياء والرسل الكرام سادة الدنيا في الزهد، وكذلك كان صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لقد فهموا من الزهد أن يكون الهم الأكبر هو الآخرة والنجاة والفوز فيها، والحياة الدنيا بكل ما فيها إنما هي مطية للدار الآخرة، فمن أحسن فيها نجا وفاز، ومن أساء خاب وخسر؛ فالزاهد الحق هو الذي يجتهد في حدود ما يستطيع ويملك ويحسن لينشر الخير ويقلل من الشر بقوله وفعله وماله وعلمه وجهده ووقته...ويسعى في تحصيل الرزق والتمتع به في حدود ما يرضاه الله تعالى، فالدنيا عند الزهاد بحق ميدان للتنافس في فعل الخير وترك الشر، والزهد بهذا المعنى لا يعني البتة الانقطاع عن الدنيا، وطلب الرزق ومخالطة الناس، وقد كان رسول بالمنزلة المعلومة من الزهد والتقوى وكان يبيع ويشتري ويرهن، ويتزوج النساء، وكان يستلذ بعض أنواع الأكل والشراب، ويفرح مع أهله وقومه في المسرات، كما يحزن لحزنهم، كل ذلك في عبودية تامة وكاملة لله تعالى.

أما ما استحدثه البعض في مدلول الزهد، من أنه لبس الخشن من الثياب، واعتزال الناس، والانقطاع التام عن دنيا الناس، والبعد عن مخالطتهم -وخصوصا بالنسبة لأهل العلم والفضل- فهو سلوك أضر بالأمة كثيرا، فقد جر ذلك إلى فراغ الكثير من الثغور في المجتمع من أهل التقوى، فوسد الأمر إلى غير أهله، وضاعت الكثير من الحقوق والأمانات التي يجب أن ترعى وتحفظ، وقل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعف النصح للمسلمين رعية ورعاة، فانتشر الفساد، وعم البلاء، وصعب على من جاء بعد ذلك العلاج، بعدما استشرى الداء في الكبير والصغير.

بينما الزهد الذي عاشه عليه السلام وصحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين يعني أن تعيش بين الناس راغبا راهبا، تسعى لتحصيل الرزق، تستمتع بالحلال مأكلا ومشربا وغير ذلك مما أحله الله تعالى مع دوام المراقبة والخشية، وامتلاء القلب بمحبة الله تعالى وذكره والشوق إليه، وبهذا الفهم كانوا يقبلون على البذل والتضحية في سبيل الله تعالى بشكل معجب؛ وقد أدرك سلف الأمة انحراف البعض عن هذه الجادة وظهر نقدهم على لسان إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، فقد قيل له إن في المسجد جماعة لا يعملون ويقولون إنهم متوكلون، فقال رحمه الله تعالى: هؤلاء مبتدعة، هؤلاء قوم سوء أرادوا تعطيل الدنيا، ولما قيل له: إنهم يحتجون بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا، فقال: أي شيء هذا غير العمل؟ تغدو وتروح؛ وفي قول آخر له: إنهم نسكوا نسكا أعجميا.

وهكذا ميز الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه بين الزهد الإسلامي الأصيل والصحيح، وزهد دخيل ربما تسرب إلى أمتنا من الملل كالبوذية والهندوكية عن طريق من أسلموا ولم يحسنوا فهم الإسلام، أو فهموه من خلال مفاهيمهم الدينية السابقة؛ والحقيقة التي ينبغي الاستمساك بها أن الإسلام يدعو إلى مفهوم واضح للزهد جسده رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته الذين هم جيل التلقي، وخلاصة الزهد عندهم إيثار الآخرة على الدنيا، والعمل في هذه الدنيا والنشاط فيها على أساس أن الآخرة هي الغاية، وأن الدنيا وما فيها لا تقصد لذاتها، بل هي وسيلة، ويمكن تلخيص مفهوم الزهد في العناصر التالية:

أ/ السعي لكسب الرزق وتحصيل المال حلال بل مطلوب لكف النفس عن السؤال وسد حاجة العيال ونفع العباد، والنصوص في ذلك لا تحصى كثرة.

ب/ إن السعي في طلب الرزق وجمع المال ينبغي ألا يستغرق نشاط الإنسان ويصبح همه الشاغل، أو أن يكون الغاية من وجود الإنسان ومحبوبه الأسمى، فاستيلاء حب الدنيا والمال ومختلف متع الحياة على القلب والعقل مفض بلا شك إلى زعزعة العبودية لله تعالى وإضعافها، وفي هذا السياق جاء قوله تعالىﭽﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜﮝ ﭼ وقوله عليه السلام فيما صح عنه:" تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، ...".

**رابعا/ الجمود الفكري:**

لقد بين المفكر الجزائري مالك بن نبي طبيعة العلاقة بين الإرادة والإبداع العقلي في مسار الحضارة بقوله:"فحيثما توقف نبض الروح خمد إشعاع العقل"، أي أن الإنسان تسيره طاقة روحية باطنية، قد تكون هذه الطاقة الدافعة نحو البناء عقيدة دينية، وقد تكون عبارة عن قناعة فكرية ارتبطت بوجدان الإنسان فتحولت إلى عقيدة دينية أو ما يشبه العقيدة، ولذا عبر عنها بن نبي ب"الفكرة الدينية"؛ فمتى ما وجد هذا الإيمان تدفق منهمرا في كل أبعاد الإنسان، ليحوله إلى كائن نشيط لا يكل ولا يمل من العمل، منضبط منتظم، يقدر قيمة الوقت، ويغلب جده على هزله، وفي لفكرته يمدها بوقته وجهده، وإن تطلب الأمر فداها بدمه، وهذا ما يفسر تلك التضحيات الجسام التي قدمتها الأجيال الأولى التي دخلت وأدخلت أمتها إلى التاريخ وصناعة الحضارة، ومن هذه الأجيال على سبيل التمثيل جيل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وبناء عليه يظل إنسان الحضارة صانعا لها، مبدعا في مختلف مجالاتها، ما دام الإيمان بالفكرة قويا دافعا، فإذا دخله الضعف حصل من التراجع في البذل والإبداع والعمل الإنساني بشكل عام بقدر ذلك الضعف الحاصل، ومن هنا يبدأ العد العكسي في مسيرة تلك الحضارة، وهي اللحظة نفسها التي تبدأ فيها دورة حضارية لأمة أخرى قريبا أو بعيدا جغرافيا عن تلك الحضارة التي بدأت تهوي.

وهذه سنة الله تعالى في خلقه، فلا توجد دولة لا تضعف، أو حضارة لا تتراجع، فالحضارة كالإنسان الذي قال عنه خالقه جَلَّ جلاله: ﭽﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉﮊ ﮋ ﮌ ﮍﮎ ﮏ ﮐ ﮑﮒ ﭼ (الروم/ 54)، ومعلوم أن سنة الله تعالى لا تتبدل ولا تتحول فهي منطبقة على جميع الأمم والحضارات ومن ضمنها الحضارة الإسلامية، لقد بدأ نورها على يد رسول الله الكريم عليه السلام ثم تجمع الصحب الكرام من حوله ثم هاجر وكون مجتمعا ودولة فتية ثم صارت الدولة حضارة تنتج العلم والمعرفة، وتؤسس مناهج العلوم وتطورها، وتبني النظم والمؤسسات، وتشيد العمران الذي يتناسق مع مبدئها التوحيدي المتميز.

وبعد رحلة طالت أو قصرت بدأت هذه الحضارة في التراجع لأن الإيمان بدأ يضعف في نفوس حملتها، وكان من نتائجه بداية التراجع الفكري وما انجر عنه من ضعف ثم انقطاع الإبداع وشيوع الجمود الفكري في مختلف مجالات العلم والمعرفة وأبعاد النشاط الفكري.

ومن أبرز مظاهر التأزم الفكري المناداة بغلق باب الاجتهاد، والعجيب كما قال بعض المعاصرين:" إذا كان باب الاجتهاد قد فتحه الله تعالى في كتابه المبين، وفتحه وأقره رسوله الكريم عليه السلام في سنته، فمن الذي يجرؤ على التقدم بين يدي الله ورسوله لغلقه؟ !"؛ وقد كنت أظن أن في البداية أن غلق باب الاجتهاد اقتصر على الأصول والفروع لكن سرعان ما اكتشفت أنه امتد إلى مجالات أخرى غير الفقه، ومنها علوم الحديث، فالأئمة الأوائل كانوا يصححون ويضعفون المرويات بناء على قواعد موضوعية واضحة ومحددة، وحين سرى الجمود الفكري في الأمة نادى البعض (ابن الصلاح) بأن العبرة بما قاله الأولون، ولا أحد يمكنه اليوم التصحيح دون قول سابق من حافظ معتمد، يقول الحافظ ابن كثير:"وكذلك يوجد في مُعْجَمَي الطبراني الكبير والأوسط، ومُسْنَدَيْ أبي يعلى والبزَّار، وغير ذلك من المسانيد والمعاجم والفوائد والأجزاء، ما يتمكن المتبحر في هذا الشأن من الحكم بصحة كثير منه، بعد النظر في حال رجاله، وسلامته من التعليل المفسد. ويجوز له الإقدام على ذلك، وإن لم يَنُصَّ على صحته حافظ قبله، موافقة للشيخ أبي زكريا يحيى النووي، وخلافا للشيخ أبي عمرو"، فتعقبه الإمام أحمد شاكر بالقول:"ذهب ابن الصلاح إلى أنه قد تعذر في هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد، ومنع بناء على هذا من الجزم بصحة حديث لم نجده في أحد الصحيحين ولا منصوصا على صحته في شيء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة. وبنى على قوله هذا: أن ما صححه الحاكم من الأحاديث، ولم نجد فيه لغيره من المعتمدين تصحيحا ولا تضعيفا: حكمنا بأنه حسن، إلا أن يظهر فيه علة توجب ضعفه. وقد رد العراقي وغيره قول ابن الصلاح هذا، وأجازوا لمن تمكن وقويت معرفته أن يحكم بالصحة أو بالضعف على الحديث، بعد الفحص عن إسناده وعلله، وهو الصواب؛ **والذي أراه(الكلام الآن لأحمد شاكر): أن ابن الصلاح ذهب إلى ما ذهب إليه بناء على القول بمنع الاجتهاد بعد الأئمة، فكما حظروا الاجتهاد في الفقه أراد ابن الصلاح أن يمنع الاجتهاد في الحديث.وهيهات ! فالقول بمنع الاجتهاد قول باطل، ولا برهان عليه من كتاب ولا سنة ولا نجد له شبه دليل**"(الباعث الحثيث/ص:23).

وانتشر هذا القول سريعا في كل أنحاء المعرفة الإسلامية، فجمد التفكير الإسلامي على ما أقوال الأوائل، واتخذ كل فريق لنفسه عالما أو علماء جعلهم واسطة بينه وبين الله تعالى، فما قالوه هو الحق والصحيح، وتوارث الناس هذا التقليد ولم يتجاسروا على الاجتهاد؛ وكان من أخطر نتائجه: توقف العقل المسلم عن الاجتهاد، شيوع التقليد، انتشار العصبية للرجال؛ ومن يرجع إلى تراثنا الفقهي وغيره يجد العجب العجاب من الأقوال انتصارا للإمام المتبع، أو ردا لقول المخالف، ومن تلكم العجائب الغرائب في التعصب المذهبي المقيت ما نقله سامح محمد عيد في مقال علمي ماتع له على موقع "**الألوكة"** وعنه نقلنا هذه النماذج:

يقول الحصكفي الحنفي منشدا:

وقد قال ابن إدريس مقالا \*\*\* صحيح النقل في حكم لطيفة

بأن الناس في فقه عيال \*\*\* على فقه الإمام أبي حنيفة

فلعنة ربنا أعداد رمل \*\*\* على من رد قول أبي حنيفة

وأنشد منذرُ بن سعيد الظاهريُّ عدَّة أبيات تُصوِّر حالة تشبُّث المالكيَّة بقول الإمام بدون دليلٍ، فقال:

عذيرَيَّ مِن قومٍ إذا ما سألتهم \*\*\* دليلا يقولوا: هكذا قال مالك

فإن زِدتَّ قالوا: قال سُحْنُونُ مِثْلُهُ \*\*\* وقد كان لا تخفى عليه المسالك

فإن قلت :قال الله، ضَجُّوا وأَعْوَلُوا \*\*\* عليَّ وقالوا: أنت خصم مُمَاحِكُ

وقال إمام الحرَمين الجوينيُّ الشافعي: نحن ندَّعي أنه يجب على كافَّة العاقلين وعامَّة المسلمين - شرقًا وغربًا، بُعدًا وقربًا - انتحالُ مذهب الشافعي، ويجب على العوامِّ الطَّغَام، والجُهَّال الأنذال أيضًا انتحالُ مذهبه؛ بحيث لا يَبْغُون عنه حِوَلاً، ولا يريدون به بدلاً!.

وقال أحد الحنابلة:

أنا حنبليٌّ ما حَيِيتُ وإِن أَمُتْ \*\*\* فوصيًّتِي للنَّاس أن يَتَحَنْبَلُوا

بقيت الأمة على هذا الحال من الجمود وما تولد عنه من التقليد، وتعطل الاجتهاد، والعصبيات المذهبية والطائفية قرونا عديدة، ويمكن القول إن الأمة بدأت فعليا في محاولات التخلص من هذا الوضع الفكري مع الطلائع الأولى للإصلاح من أمثال الإمام الشوكاني(1173ه/1250ه) والإمام محمد بن عبد الوهاب(1115ه/1206ه) واشتدت الدعوة إليها بعد ذلك على يد مدرسة المنار، لتنتشر بعدها في مختلف أقطار الأمة الإسلامية، ولا يعني ذلك البتة أنه لم توجد نماذج فكرية دعت إلى ذلك قبل هؤلاء الأعلام، كلا ! فقد دعا إلى مثل هذا الإمام ابن تيمية وغيره، ولكن نقصد هنا الدعوات التي تتالت وآتت أكلها إلى حد بعيد، ولقد أثمرت الدعوات الأخيرة خيرا كثيرا، فصرنا نرى اليوم الكثير من البحوث التي تنجز، والآراء الفقهية التي تتبناها المجامع الفقهية ومراكز الفتوى لا تتعصب -إلا ما شذ منها- لمذهب معين، بل تجعل التراث الفقهي كله تركة واحدة ينبغي الاستفادة منها على حد سواء.

**خامسا/ الاستبداد السياسي:**

لقد ظل هذا التحدي من مشاغل الفكر الإسلامي خلال محتلف أطوار التاريخ الإسلامي، وتراوح فيه بين رفض الاستبداد والمجاهرة بذلك، أو التزام الصمت والانشغال بالتربية والتعليم درءا للفتنة وانخرام الكلمة، واتجاه ثالث وهو المداهن للسلاطين الظلمة رغبة في السلامة، وطلبا للحظوة، ولهثا وراء التولية؛ ولم يخل زمن من قائم لله بالحجة يحاجج المستبدين، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، لا يخشى في الله تعالى لومة لائم، ولو كان المآل غياهب السجن أو حز الرأس، وقد تمثل أحيانا في النصحية بالقول، أو الاعتراض على قرار، ولما صار ذلك غير مجد انتقل أحيانا إلى المقاومة بالسيف؛ ولعل من أشهر أحداث منابذة العلماء للحكام الظلمة خروج الحسين بن علي عليه السلام، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وثورة عبد الرحمان ابن الأشعث، أو ما يعرف بثورة الفقهاء(95ه)، والتي شارك فيها عدد كبير من الفقهاء والقراء والزهاد يقودهم عبد الرحمان بن الأشعث، وقد ذكر خليفة بن خياط أن عددهم بلغ خمسمائة عالم، يقول الإمام الذهبي رحمه الله تعالى عن هذه الثورة وقائدها:"بعثه (أي ابن الأشعث) الحجاج على سجستان، فثار هناك، وأقبل في جمع كبير، وقام معه علماء وصلحاء لله تعالى لما انتهك الحَجَّاجُ من إماتة وقت الصلاة، ولجوره وجبروته، فقاتله الحجاج، وجرى بينهما عِدَّةُ مُصَافَّاتٍ، وينتصر ابن الأشعث، ودام الحرب أشهرا، وقتل خلق من الفريقين، وفي آخر الأمر انهزم جمع ابن الأشعث""(سير أعلام النبلاء/ ج04/ص: 184-185)؛ بل ذكر المؤرخون أنه كانت للقراء كتيبة خاصة بهم تسمى (كتيبة القراء) وقد لاقى الحجاج وجيشه منها عنتا ومشقة، ومن الفضلاء الصلحاء الذين شاركوا في هذه الثورة سعيد بن جبير الفقيه الثائر الشهيد رضي الله عنه، وأبو الشعثاء سليم بن أسود المحاربي، وعبد الرحمان بن أبي ليلى، والشعبي وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، وبعضهم كان مؤلبا كأنس بن مالك رضي الله عنه، ذكر ذلك الإمام الذهبي، وتعد هذه الثورة من أبلغ الردود على من انبطحوا أمام الظلمة المستبدين، ويجتهدون في تبرير طغيانهم وشرعنته نسأل الله السلامة والعافية.

ظل الصراع بين العلماء والسلاطين يضطرم تارة، ويخبو تارة أخرى، إلى أن جاء الاستعمار فانصرف الفكر الإسلامي بكليته إلى مناوئة الاحتلال على مختلف الجبهات العسكرية والفكرية من جهة، والعمل على تخليص الأمة مما هي عليه من أسباب الوهن الفكرية والنفسية والاجتماعية من جهة أخرى، وما إن ترك الاحتلال بلاد المسلمين حتى عاد السجال بين العلماء وحكام ما عرف بدولة الاستقلال، حيث تركزت جهود العلماء والمفكرين والمصلحين فرادى وجماعات على المناداة بالحرية السياسية في اختيار الحاكم، وحق المعارضة السياسية، وتحقيق العدل والمساواة، وحق محاسبة الرعية للراعي، ومراقبة إنفاق المال العام، وغير ذلك من الحقوق الفردية والجماعية.

|  |
| --- |
| **عَذِيرِيَ مِنْ قَوْمٍ إِذَا مَا سَأَلْتُهُمْ https://www.alukah.net/Images/alukah30/space.gif**  **دَلِيلاً يَقُولُوا: هَكَذَا قَالَ مَالِكُ https://www.alukah.net/Images/alukah30/space.gif**  **فَإِنْ زِدْتُ قَالُوا: قَالَ: سُحْنُونُ مِثْلُهُ https://www.alukah.net/Images/alukah30/space.gif**  **وَقَدْ كَانَ لاَ تَخْفَى عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ https://www.alukah.net/Images/alukah30/space.gif**  **فَإِنْ قُلْتُ: قَالَ اللهُ، ضَجُّوا وَأَعْوَلُوا https://www.alukah.net/Images/alukah30/space.gif**  **عَلَيَّ وَقَالُوا: أَنْتَ خَصْمٌ مُمَاحِكُ** |